عيون لا تنام

في أول رحلة لي داخل هولنـــدا نظمتهـــا الجامعـــة، كانـــت لمدينـــة أمستردام عاصمة هذه المملكة الصغيرة... كان الجزء الأكبـــر لهـــذه الجولة على متن قارب نهري يتسع لما يقارب المائة وخمسين مـــن الطلبة والأساتذة.. تثقل هذا القارب من حي لآخر، ومن خلال قنوات مائية تخترق بدقة متناهية المناطق المأهولة لهذه المدينة المزدحمة بكل البشر، ومن كل الأجناس والسائحين.. وما كنا نصل إلى مَعلم أو مبنى مميز، أو مكان له تاريخ في حياة الشعب الهولندي وذاكرته؛ إلا وتوقف هذا القارب، وأخذت المرشدة التي ترافقنا بالحديث بإســـهاب عن هذا الأثر التاريخي وعن رمزيّة هذا المكان في تـــاريخ مقاومـــة الشعب الهولندي للاحتلال الألماني قبل الحرب العالمية الثانية...

كل هذا كان عاديًا لمعظمنا، فما من شعب إلا وله معالم ورموز تؤرخ لثورته ضد الاحتلال والمحتل.. وما من شعب ناضل ضد الاســـتعمار والاضطهاد إلا وترك بصمة على الأرض لتؤكد وتعلّم الأجيال القادمة بأنه لا سبيل للحرية والانعتاق من العبودية والســـيطرة الغريبـــة، إلا بالمقاومة بكل أشكالها وأنواعها... وتبقى هذه الرموز والمَعالم لتّذكر

ببطولات المقاومين والشهداء، وفرصة لمن كُتب له ولعائلته الحياة أن يبقى فخورًا بما قدم لبلده والأرض التي احتضنته وربته.

مرّت على رحلتنا هذه بضع ساعات، وإذا بالقارب يتوقف عند بيت صغير، يقع على حافة إحدى القنوات المائية التي تنتشر وبكثرة في الأحياء الهولندية، وفي معظم المدن والبلدات الصغيرة.. كان التوقف هنا مختلفًا، وكأننا ندخل مكان عبادة مقدس.. وعند نصب تذكاري بسيط؛ طُلب منا الترجل من القارب إلى المرفأ.. ووقفنا بشكل دائري وعفوي محملقين بهذه المرشدة وذاك المَعلم الصغير، دون أن نعرف لمن هذا النصب، ولمن هذا البيت الذي كُسي بثوب وهالة من القداسة، أظهره وجه هذه المرشدة الذي علاه التأثر والشحوب!!

بدأت المجموعة التي حضرت للدراسة من أكثر من ستين دولة بالتهامس.. وقبل أن يتحول الهمس إلى سؤال: أين نقف الآن وبكل هذا الإجلال والتأثر؟ خرجت المرشدة عن صمتها، لتخبرنا بأننا نقف على أعتاب بيت لإنسانة غير عادية! إنسانة كانت مثالاً للتضحية والصبر والمقاومة غير العادية.. إنه منزل الطفلة المناضلة الهاربة من ألمانيا النازية إبان الحرب العالمية الثانية.. إنها الطفلة "آنّا فرانك" التي سيقت ووالديها إلى معسكرات النازية وماتت هناك بالمرض، ليجد والدها الناجي الوحيد من العائلة مذكراتها التي كانت تدونها أثناء اختبائهم من الاحتلال الألماني محفوظة في ذلك البيت الصغير، ليقرر نشرها وإحياء ذكراها!

الجميع؛ وأنا منهم؛ انتبه وبشكل واضح للدموع التي انهمرت من عيون المرشدة السياحية وهي تتحدث عن الفتاة "أنّا"، وللتأثر حين أضافت أن قصة الفتاة ورحلة عذابها متوفرة في كل المكتبات ومراكز بيع الكتب.

انتهت جولتنا تلك بعد المرور ببعض المعالم والأحياء التاريخية لمدينة أمستردام العريقة.. عدنا إلى أماكن إقامتنا، ولا حديث بين الزملاء والأساتذة المرافقين سوى الطفلة البريئة "أنّا" التي كانت ضحية النازية والعنصرية!!

ولفضولي المعتاد فتحت على صفحات الإنترنت لأتعرف أكثر على قصة هذه الطفلة التي باتت مثلاً للمعاناة، لأجدها منتشرة على الكثير من صفحات الإنترنت، زد على ذلك الأبحاث والدراسات عن سيرة هذه الفتاة وأدق تفاصيل حياتها!.. حتى أن بعض العائلات العربية أبلغتني بعدها أن أطفالهم كانوا يبكون عند عودتهم من المدرسة بعد سماعهم لقصتها في صفوفهم المدرسية!

ومع كل ذلك اختلط عليّ الأمر، فبالرغم من تعاطفي مع براءة الطفلة ومعارضتي لقتل طفولتها وفقدانها للحياة أو التعدي على حرية عائلتها، لكني وفي نفس الوقت، تساءلت مستنكرًا؛ وبشيء من البراءة: كم من طفلة هي "أنّا" فلسطينية، وبدون ذنب حُولت إلى أشلاء؟!.. وكم مجزرة لأطفال وشيوخ ونساء مثلما حدث مع هذه الطفلة وأعظم، وقعت على مرأى ومسمع العالم الحر وغير الحر بدون أن يهتز حتى رمش أو يحرك ساكن؟...

تساءلت في نفسي: ماذا لو سردت عليهم وذكّرتهم بمجازر دير ياسين وقبية وتل الزعتر؟، أم أذكّرهم بمذابح صبر وشاتيلا التي تمر ذكراها السوداء في هذه الأيام.. وهل جف دم الأبرياء في مجازر "غزة" الأبية بدايات هذا العام؟!

أجبتُ أيضًا لكن في نفسي بأنني لم أسمع يومًا عن لجنة تحقيق أنجزت مهمتها بعد تحقيقها في كل هذه المجازر!! ولم نسمع أن نصباً تذكارياً قد شُيد في مكان ما في العالم؛ أو حتى في فلسطين نفسها؛ يخلد ذكرى هؤلاء الذين روت دماءهم الأرض ووئدت أحلامهم وبدون ذنب يعرف أو يَفهم.. ولم أقرأ عن مذكرات أو كتيب حتى لتأريخ هذه المجازر والفظائع إلا بمبادرات فردية شخصية؛ لم تصل إلى العالم ولم تصل لمستوى الحدث ولا لهذه الفظائع التي حاولت إفناء أكبر كم من الإنسان العربي الفلسطيني، ولم تكن قضية شخص أو فرد بذاته.

نحن نحترم الإنسان مهما كانت ديانته وعقيدته، لكن ما لا نحترمه هو التمييز والعنصرية بين إنسان وآخر اعتمادًا على عقيدته ودينه.. وما لا نحترمه أيضًا هو الميزان الذي يقيس بمكيالين؛ فيه غير العربي في الكفة الراجحة دائماً!.

وما نستغربه ذاكرة الإنسان العربي التي تمحى بأسرع من الحدث نفسه.. فكم مرت مجازر ومحن ونكبات وأكثر من النكسات وكأنها كانت حلمًا عابرًا، أو كابوسًا ينتهي بأشهر أو سنوات على أبعد تقدير!!!.

أما غيرنا من الأمم والشعوب فلهم دائمًا عيون لا تنام حتى تخلّد ذكرى المحن والنكبات وتحيي التجارب الشخصية والتاريخية؛ كانت إيجابية أو سلبية، فتدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ولتكون مادة أساسية على مقاعد الدراسة للإبقاء على ذكرى الأشخاص والأحداث، وليتم تحليلها والاستفادة منها كلٌّ بطريقته.

أما نحن، فنقف عند بداية السطر منتظرين بقايا مداد، أو أحد ما يكمل لنا فيه السطور والتاريخ!!.

نشرت في دنيا الوطن والعروبة - ٢٠٠٩ م